المقامات العليّة
في
الكرامات الجليّة

لبعض الصحابة رضوان الله عليهم

لمؤلفه
ابن سيد الناس

تقديم وتحقيق
عفت وصال حمزة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، وبه نستعين ، والصلاة والسلام على نبيه الأمين ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ٠

وبعد

فهذا كتاب [المقامات العلية في الكرامات الجلية] لمؤلفه : فتح الدين أبي الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس والملقب بابن سيد الناس ٠ أقدمه بين يدي القراء والمهتمين بشؤون التراث ، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه، الى ما يسمو بروحنا ويرفع معنوياتنا ، ويمتعنا بالهدوء النفسي ، والاطمئنان الذاتي ، في هذا العالم الهائج المائج بالمعقول واللامعقول ، والمضطرب بما يصدق وما لا يصدق ٠ فبقدر ما يسهل علينا أن ندور حول الأرض ، أو نخطو للقمر ، أو ندبر لغزو الكواكب ، ونحارب من أجل ذلك ، بقدر ما يصعب علينا فهم أعماق الحياة الروحية ، في حاضرنا وماضينا ٠ لذلك فنحن لا ننعم بالراحة المعنويةولا بالاطمئنان الفكري ، لأننا نحيا في عصر سيطرت فيه المادة على عقولنا ، بل على أسماعنا وأبصارنا ٠٠٠ حتى غدونا لا نتعامل إلا بالأمور المحسوسة ولا نفهم إلا ما يقع تحت بصرنا أو لمسنا أو ذوقنا ٠٠٠ فنطبق عليه قوانين المادة التي اعتدنا على استخدامها وتطبيقها ، على أعاظم الأمور وأصاغرها ٠ فاذا صادفتنا إحدى الخوارق ــ وما أكثرها ــ وهي مما لايقاس علىقوانيننا التي اكتشفناها، وتقيدنا بها فاستعبدتنا ٠ أقول إذا صادفتنا وضعناها تحت عنوان [شيء لا يصدقه عقل] أو

صنفناها في زمرة [عجائب وغرائب] أو [صدق أو لا تصدق] ... وأما الأمور الروحية فاننا نقف منها موقف الذهول تارة، وموقف التكذيب تارة أخرى ، وموقف التناسي والتغاضي في بعض الأحيان • فنكابر على ذواتنا ، لأننا عجزنا أن نطبق عليها مقاييس العلم الذي يقيس ويزين ويكيل • وحق لنا ألا نصدق فنحن نعيش في عصر الطغيان المادي ، ونتسابق بشكل جنوني لاكتشاف دقائقه وقوانينه وعلاقاته المحسوسة • ولو أمكننا أن نزين الروح بميزان الطن أو الميكرون ـ في غمار هذه المادية المفرطة ـ ما قصرنا • ولو كان الأمل واليأس والتفاؤل والتشاؤم والحقد والخوف والحب والكره ... كل ذلك لو كان يقاس بالميل سعة أو بأجزاء الميكرون ضيقا ما ترددنا • ولو أن مقاييس الواط والجول والأمبير والفولط ... وما الى ذلك من وحدات كثيرة في عصر العلم هذا، يمكنها أن تطبق على عالم الروح وما وراء الطبيعة لَهلَّلْنا وكبرنا لأننا أوجدنا كشفا جديداً في هذا الكون في تطبيق قوانين المحسوس على اللامحسوس •

وتطالعنا بين الحين والآخر أمور خارقة للعادة ، حصلت لعبد من عباد الله ، أو معجزة من معجزات رب العالمين ، فنرويها ونتخبط في تفسيرها ، ونشك في ثبوتها ، فلا نصل إلا الى أطراف من الحقيقة • ويظل الشك يراودنا ، فلا يرتوي تطلعنا ، ولا يُشفى حب استطلاعنا •

وإنني كلما ذكرت قصة الشهيد الناطق عبد الرحمن النويري وغيره من أصحاب الكرامات من الأولياء والصالحين ؛ ازددت ايمانا بأن رب العالمين يتحدى البشر بأمور لا تقاس على قوانينهم ولا سيما في أوقات الشدة، والحالات العصبية[وما أمرُنا إلا واحدة" كَلَمْحٍ بالبَصر] ـ ٥٠ ـ سورة القمر •

فهؤلاء البشر يسعون وراء الحقيقة ولا يصلون إليها إلا بالتسليم المطلق لارادة هذا الرب العظيم • واليكم قصة هذا الشهيد الناطق كما جاءت في كتاب سير الأولياء للشيخ صفي الدين الخزرجي الأنصاري مع بعض التصرف في أسلوبها[1] •

[لما غزا الصليبيون دمياط قال الفقيه الشيخ عبد الرحمن النويري لأصحابه في النويرة [وهي ناحية في مصر] ولأهله وأبنائه: من أراد منكم الشهادة فليعول عليها ، فخرج معه أحد أبنائه وجاءا الى مصر ونزلا في جامع غبن (يقول الشيخ صفي الدين : وقد رأيتهما في ذلك الجامع وهما في طريقهما لدمياط) • ثم حضرا الى دمياط ونزلا في الميدان (ميدان الحرب) بخيمتهما • فلما زحف الفرنج الى الميدان، وغلبوا من كان فيه، هرب من هرب وبقي الفقيه في خيمته ، هو وولده ، الى أن دخلوا عليه ، وهو يصلي ، فقتلوه مع ولده • فلما كان بعد ذلك وهزم العدو ، وعقد صلح بين المسلمين والفرنجة ، سافر تاجر من أهل النويرة الى عكا ليتجر ؛ فدخل المدينة وعرض بضاعته، فجاء اليه أفرنجي واشتراها منه وقال له: امش معي تأخذ ثمن بضاعتك ، فمضى التاجر المسلم مع الافرنجي الى منزله ، حتى دخل معه الى بيته ، فلما أن وجد المسلم نفسه وماله في بيت الافرنجي ؛ خاف على روحه وعلى ثمن بضاعته ، فأدرك الافرنجي ذلك فقال له يا مسلم لا تخف أنا مسلم مثلك • ثم ذكر الشهادة قائلا : إنني أشهد : ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله • أنا الذي قتلت شيخكم وفقيهكم عبد الرحمن النويري وذكر كيف قتله في وقعة دمياط قال : دخلت عليه خيمته وهو يصلي وضربت عنقه مع ابنه الى أن ماتا

(١) سير الأولياء في القرن السابع الهجري ص ١٤٢ تحقيق : مأمون محمود ياسين ـ وعفت وصال حمزة •

وتأكدت من موتهما • ثم غنمت مصحف الشيخ وسيفه وبعض حوائجه وخرجت • لكن فكرة خطرت لي بعد أن غادرت الخيمة بساعة ، فعدت الى الشيخ فوجدته مع ابنه قتيلين كما تركتهما ، وعنق الشيخ مضروب كما غادرته • فاقتربت من جسد الشيخ وركلته بقدمي وقلت : يا قسيس المسلمين ! أنتم تقولون في قرآنكم: « **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** » وها أنت ميت أمام عيني (وفي الحقيقة لم أكن أذكر الآية في ذلك الوقت إلا بمعناها ولكنني حفظتها فيما بعد) قال الفرنجي : قلت ذلك بطريق التهكم والسخرية • فما راعني إلا الشيخ الفقيه فتح عيني رأسه وقال بصوت قوي مرتفع دوت له الأرجاء وكأنه صوت سماوي علوي [نعم أحياء عند ربهم يرزقون] ثم سكت •

ولما رأيت ما رأيت ، وسمعت ما سمعت ، بهت وانتزع الكفر من قلبي انتزاعا ، وأسلمت على يديه • وأرجو أن يغفر الله لي ببركته وإسلامي على يديه ، وعندي الآن مصحفه وسيفه ، فلما رأيتك قلت : إن هذا الرجل من أهل بلده وأردت أن أعرفك على حالي وحاله ، ولعلك تقدر ثمنا لهذا السيف والمصحف ، وتأخذه لتوصله الى ورثته رضي الله عنه] •

هذه الأمور وأمثالها دفعت بي الى تحقيق هذا الكتاب (المقامات العلية) ، إضافة الى ما آليت على نفسي ، من نفض الغبار عن كنوز تراثنا القديم وإبرازه للقارىء ، حتى يتعرف على ذخائر آبائه ، وتراث أجداده فيزيد اعتزازه بها ، ويبني بناءه على أساسها ، فمن لا قديم له كمن لا جذور له •

كثيرة هي الكرامات التي قرأت عنها في الكتب المصنفة ، المطبوعة والمخطوطة • وهي التي دفعت بي للعودة الى كرامات الصحابة [رضوان

الله عليهم] إذ انها النبع الأصلي والمقياس الأول لكل كرامة أخرى • وإذا كان عدد كبير من الناس يقف موقف المتشكك من كرامات من جاء بعد الصحابة ، إلا أنهم لن يشكوا لحظة واحدة بكرامات الصحابة •

هذا ولا بد لي قبل أن أعرف بكتاب [المقامات العلية] من أن أوضح ما هي الكرامة ؟ ومع من تحصل ؟ ومتى تحصل ؟

الكرامة هي : كل أمر خارق للعادة — وفي كتاب المعجم الصوفي[1] تعريفات كثيرة أختار منها :

١ — الكرامة أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدي •

٢ — الكرامة : ظهور الشيء في غير موضعه ووقته •

والتعريف المعاصر المناسب لعصر العلم : الكرامة هي كل خارق لقوانين العلم المادية •

ولكنها لا تأتي للتحدي كالمعجزة ، بل يجعلها الله مخرجا لعباده من شدتهم • ككرامة حجر بن عدي واجتيازه لدجلة، أو كرامة زيد بن حارثة كما سيقرؤها القارىء في هذا الكتاب • أو برهانا على صدق دين الله أمام أعدائه كقصة خالد بن الوليد وشربه للسم إبان حربه في العراق ، أو كما ذكرت — قبل قليل — عن قصة عبد الرحمن النويري والافرنجي • أو إكراماً لعبد من عباد الله الصالحين • وقد أجمع العلماء على أن كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي •

وبينما تأتي المعجزة على يد أنبياء الله لتحدي المشركين والمعارضين تأتي الكرامة على يد أولياء الله الصالحين • قال سبحانه وتعالى :

(١) انظر المعجم الصوفي ص ٩٦١ — ٩٧٠ •

« **وألْقِ ما في يَمينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعوا إنما صنعوا كيْدُ ساحِرٍ ولا يُفْلِحُ الساحِرُ حَيْثُ أتى • فَأُلْقِيَ السَحَرَةُ سُجَّداً قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرونَ وموسى** » • سورة طه ٦٩ ــ ٧٠ •

ويفرق[1] الطوسي بين المعجزة والكرامة من جهات شتى نلخصها فيما يلي :

١ ــ الأنبياء عليهم السلام مستعبدون (مأمورون) باظهار المعجزة للخلق حجة لا تقبل الكتمان • والأولياء مستعبدون (مأمورون) بكتمان الكرامة عن الخلق •

٢ ــ ان المعجزة حجة النبي على المشرك للدلالة على الله والاقرار بوحدانيته • والكرامة حجة الولي على نفسه ، حتى تطمئن وتؤمن لأنها أمارة بالسوء •

٣ ــ ان المعجزات كلما زيدت للأنبياء يكون أتم لمعانيهم وفضلهم • أما الكرامات فكلما زيدت للأولياء يكون وجلهم أكثر •

٤ ــ إن كرامات الأولياء تجري عليهم من حيث لا يعلمون [خوف الفتنة] والأنبياء تكون لهم المعجزات وهم بها عالمون وباثباتها ناطقون•

أقول : وإن في معجزة سيدنا يونس ولبثه حياً في بطن الحوت لخير دليل على ما ذكرت • ولنمعن في قوله جل وعلا [**فلمَّا تَراءَى الجَمْعان قالأصحابُ موسى إنا لمُدْرَكون * قال: كلا إنَّ معيَ ربِّي سَيهْدِيْن * فأوْحَيْنا إليه أن اضربْ بِعَصاكَ البحْرَ فانْفَلَقَ فكان كُلُّ فِرْق كالطَوْدِ العَظيمْ * وأزْلَفْنا ثَمَّ الآخرِيْن * وأنْجَيْنا موسى ومن معَهُ * ثم أغْرَقنا الآخرِيْن * إنَّ في ذلِكَ لآية ، وما كانَ أكْثَرُهُمْ مؤْمِنين**] الشعراء ٦١ ــ ٦٧ •

ونحن البشر في حياتنا العادية نقول : اشتدي أزمة تنفرجي وكثيراً ما نردد مع الشاعر قوله :

(١) انظر المعجم الصوفي ص ٩٧٠ •

ولَرُبَّ نازلَة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرِجت وكنت تظنها لا تفرج

التعريف بالمخطوطة

المخطوطة وحيدة في العالم ، مما يزيد في أهميتها وهي موجودة في مكتبة شهيد علي التي ضمت مع عدد من المكاتب الى مكتبة السليمانية في استانبول • وقد أتت الرطوبة ــ بل والبلل الذي ترشح اليها ــ على كثير من صفحاتها مما جعل الحروف في الصفحات المتقابلة تتداخل فتجعل الحروف غامضة تماما •

والمخطوطة عبارة عن ٢٦ ورقة من القياس الكبير في كل صفحة ثلاثة عشر سطراً ، في كل سطر اثنتا عشرة كلمة تقريبا • كتبت بخط واضح وهي مجموعة مع كتاب (منح المدح) في مجلد واحد تحت رقم واحد أيضا هو ج[1] ١٩٥١ • وقد كتب الشعر باللون الأحمر الذي صار باهتا من فعل الرطوبة • أما النثر فكتب باللون الأسود لكنه كما ذكرت متداخل بعضه ببعض • ولو أنني عثرت على نسخة أخرى للمخطوطة لكان من المقابلة بين النسختين ما يجعل العمل أدق والخبر أوثق •

ليست المخطوطة من كتابة المؤلف ــ رغم أن خطه معروف بجماله • بدليل المقدمة حيث يقول : للشيخ الامام العالم الحافظ المتفنن فتح الدين عمدة المحدثين أبي الفتح ••• ولا يعقل بحال أن يكتب المؤلف ذلك عن نفسه مادحا بهذا الشكل •

(١) انظر الذيل ج٢ ص ٧٧ •